العرب
الخميس 2020/08/13
السنة 43 العدد 11788

# بيروت مساء الرابع من أغسطس.. دم وقمح ودخان

مرح البقاعي
كاتبة سورية أميركية

إن عجزت اللغة والمصطلحات عن توصيف الهولوكوست اللبناني الممتد منذ العام 1975 حتى تاريخ كتابة هذه السطور، فإنها لن تعجز عن نعت الطبقة السياسية، وناسها الذين هم من ورق، وقد اتّخذوا لبنان رهينة على امتداد خمسين عاما عجافا.

هم طارئون على الدولة، لكنهم متفوّقون في فنون الفساد والاحتيال على القانون والرأي العام، زمرٌ سياسية تتوارث المناصب والثروات بلا رقيب أو حسيب، أصحابُ لحىً ونوازع طائفية بغيضة تتخَصّص في توزيع الأحقاد وبث سموم الفرقة بين أبناء الشعب الواحد.

انفلاتٌ للسلاح مرّ على كل الفرقاء، وانتهى اليوم بأيدي ميليشيات حزب الله، التي باتت تنافس الجيش الوطني في حجم السلطة والتسلّح والانتشار؛ تجويعٌ ونهب خيرات، ومصارف معطلة، وانهيار للعملة، ونفايات تملأ الشوارع في غياب شبه تام للخدمات، كهرباء مسروقة تقوم مكانها مولّدات هي من حصص المتنفذين وقبضايات السياسة وزعرانها، تلوّث بيئي وأخلاقي في ظل محسوبيات وسمسرة سياسية تطال أجهزة الدولة كافة دون استثناء.

إلا أن لبنان لن يعود إلى ما كان عليه قبل الحدث الجلل في ميناء بيروت مساء الرابع من أغسطس، أبداً. فالشعب اللبناني رفع المشانق في ساحة البرلمان، بعد أن بلغ حجم الموت حدا أشبه بالجحيم؛ جحيم تراوح في قدرته التدميرية بين كارثتي هيروشيما اليابان وتشرنوبيل روسيا.

حادث تشرنوبيل أسقط الاتحاد السوفييتي، فهل يُسقط جرح بيروت في خاصرتها البحرية منظومة الفساد المتلبّسة بالحكم والجريمة، والتي لن تفلت من العقاب الشعبي والدولي هذه المرة؟

خرج علينا صاحب الميليشيا الأعتى في الشرق الأوسط وآمرها، حسن نصرالله، مخاطباً اللبنانيين بأعصاب هادئة لم نعهدها منه في خطاباته النارية إثر النكبات – وفاجعة المرفأ البيروتي أعظمها وأشدّها إيلاماً – ليقول إن انفجار المرفأ إنما يشكّل "فرصة" لفكّ الحصار عن لبنان، مشتركاً في هذا التوصيف الشائن للكارثة مع ربيبه العقائدي وبديله في قصر بعبدا، ميشيل عون.

في اليوم السادس استقالت حكومة حسان دياب، بتأثير من الغضب الشعبي من جهة، والضغط الدولي من جهة أخرى. غادرت محنية الظهر بعد أشهر قليلة من وصولها السراي الحكومي، في مصادفة تاريخية سخيفة أعدّ فصولها المعسكر الشيعي القابض على السلطة. اتهم دياب في خطاب الاستقالة "منظومة الفساد" بإعاقة أداء حكومته، لكنه لم يحدّد أسماء الفاسدين أو انتماءاتهم، أو يبرّر قبولَه التكليف الوزاري ممن هم جزء ضليع من منظومة الفساد تلك، وخبراء تعويم وحماية صنّاعه.

استبق دياب باستقالته غير المتوقّعة ظهور نتائج التحقيق الأولي بإشراف وزارة العدل، وهو تحقيق ابتدائي للكشف عن أسباب الانفجار وحيثيات وقائع الجريمة قبل الشروع في تحقيق دولي جاد غدا مطلباً شعبياً لا مهرب منه. إلا أن مرمى ثوار 17 أكتوبر يمتدّ ليشمل إسقاط منظومة الفساد برمّتها؛ برؤسائها وزعمائها كافة، من أجل بناء مجتمع جديد لا أمراء حرب وطوائف فيه.

أما زيارة الرئيس الفرنسي، إيمانويل ماكرون، في اليوم التالي للانفجار الهائل في بيروت، فلم تكن فعلاً سياسياً مجرّداً، بل هي لقاء عاطفي وإنساني مع شعب يتيم في غياب "بَيِّ الكل".

كان اجتماع ماكرون بدياب في قصره طقساً بروتوكولياً تفرضه المراسم الرئاسية وحسب؛ بل إن ماكرون هشّم كل الأعراف الدبلوماسية عندما حذّر بلهجة قاسية الزعامات السياسية، التي التقاها في مقر البعثة الفرنسية في قصر الصنوبر، من مغبّة التأخر في الإصلاح ومحاربة الفساد المستحَق، الآن، بلا أدنى تأجيل.

كما تشير زيارة ماكرون إلى مرحلة جديدة في التعاطي الدولي المباشر مع حركات التغيير والاستقلال عن صنوف الاستبداد الذي ثارت من أجله شعوب الشرق الأوسط، ومنها لبنان وسوريا، وقد دفعا الثمن الأغلى في الحروب المضادة لثورتهما. هذا التعاطي غير المسبوق للمجتمع الدولي، والذي يأخذ شكل الدعم المباشر للشارع على حساب العلاقة مع الحكومات، وليس العكس كما جرت العادة.

فرنسا التي أنهت انتدابها في لبنان عام 1943 واعترفت باستقلاله وسيادته، ودعمت شعبه دعم الأشقاء لا الأصدقاء وحسب، لن تقف في صفوف المتفرّجين وهي تشهد انجرافه إلى مصاف الدول الفاشلة بسرعة قياسية. وهي تدرك أن لبنان يقع في عين العاصفة وفي قلب تجاذبات إقليمية على النفوذ في المنطقة، إلى جانب الصراعات العنيفة والمتنقلة في محيطه، ناهيك عن بيضة الأفعى التي زرعتها إيران في عقر داره والتي تشكّل خطراً وجودياً واجتراحاً لأمنه وأمن المنطقة.

وإذا كان مشهد الشرق الأوسط برمته اليوم أقرب إلى مرجل ماء يغلي، أو برميل بارود قابل للانفجار في أي لحظة، فإن بيروت، في الرابع الأسود من شهر أغسطس، قد نالت النصيب الأعظم من هذا الموت المؤجّل، ولملمت أشلاء أبنائها التي اختلطت بقمح قوت يومهم العصيّ الذي اندلق في البحر من اهراءات المرفأ، بحر بيروت الذي كان الأكثر عطفاً على أهلها فامتص قدراً كبيراً من عصف الانفجار مخفّفاً عنهم بعضاً من الموت.

لا أتمكّن من أن أكتب بيروت دون أن تتلكّأ كلماتي بتلك العاطفة التي تلفّ حنيناً مريرا لحاضرة عربية اختصّت باحتضان أحرار الشرق، في ستينات القرن الماضي، من أصحاب الفكر والقلم والمعرفة، ومن روّاد حركات التحرّر السياسي والتحديث الاجتماعي؛ أجيال أسّست لتيارات الشعر والأدب والفنون المعاصرة التي عبرت شواطئها إلى كل الدنيا.

ولا أتمكّن من أن أكتب بيروت دون أن أغنّي مع الدمشقي نزار قباني، والبيروتية ماجدة الرومي: قومي من تحت الردم.. قومي.. إن الثورة تولد من رحم الأحزان.

# فاجعة بيروت درس للعرب

محمد خلفان الصوافي
كاتب إماراتي

على العرب ألا يكتفوا بمتابعة الأخبار المثيرة القادمة من بيروت بعد فاجعة انفجار المرفأ، سواءً تعلقت بمعرفة المسؤول عنها، أو تعلقت بمسلسل استقالات الوزراء والنواب، فالمسلسلان سيستمران معنا لفترة من الزمن.

لا بد من توسعة دائرة الاهتمام بالحدث من أجل استخلاص الدروس واستيعاب الرسائل التي تحملها الفاجعة، حول خطورة ظاهرة الانتماءات العابرة للحدود والمبنية على أسس طائفية، كما هو حال حزب الله اللبناني أو الحوثيين، أو الميليشيات الولائية في العراق، أو حتى تلك التي لها علاقة بالتنظيمات التي تدّعي الدفاع عن حقوق الإنسان، وتخفي أهدافها الحقيقية، ومثل جماعة الإخوان المسلمين، التي باتت اليوم الذراع العسكرية لطموحات رئيس النظام التركي أردوغان في عدد من الدول العربية، مثل ليبيا ومصر وسوريا وغيرها.

إن فاجعة بيروت، كما وصفها مصطفى الكاظمي، رئيس الحكومة العراقية في كلمته خلال مؤتمر المانحين، الذي انعقد يوم الأحد الماضي، وهو أكثر من يمكن أن يشعر بمرارة الحدث اللبناني وألمه لأن بلاده تعيش تقريبا "النسخة" نفسها؛ هي في واقع الأمر جرس إنذار يجب أن يسمعه كل العرب، وهي وفق كلامه "درس عميق ومشترك عن خطورة الصراع السياسي الداخلي والإقليمي والدولي في المنطقة".

النتيجة التي نراها حالياً، يجب ألا تشغلنا عن التوقف لنركز على الأسباب التي أدت إلى هذه الفاجعة الإنسانية؛ فالأمر ليس وليد اللحظة، وإنما هو مرض تراكمت أسبابه الخطيرة فترة طويلة، وعاشه لبنان واللبنانيون وفق انقسامات طائفية مبنية على المصالح، أدت بمرور الوقت إلى تدخلات خارجية، فقدت بسبب منها الدولة سيادتها وسلطتها، وأصبح في لبنان دولة داخل دولة، بل أصبحت الدولة الطفيلية أقوى من الدولة الأم، التي تحوّلت إلى دولة من الفاسدين.

لكي تكون الدولة سيّدة قرارها ومسؤولة عن كل ما يحدث داخل أرضها لا بد أن تتحمل مؤسساتها ويتحمل مواطنوها المسؤولية عن إدارة شؤونها، دون أن تفرقهم الاختلافات الفكرية والطائفية، يجب أن تكون الدولة بمثابة مظلة كبرى تتلاشى تحت ظلها التباينات. أي أن يكون هناك جيش وطني ومؤسسات تخضع للسيادة الوطنية، كما في الموانئ والمنافذ الحدودية كلها، أي شيء غير ذلك، علينا أن ننتظر حدوث كارثة أو فاجعة، تتكرر من حين إلى آخر وفق مصلحة الدول التي تواليها الأذرع السياسية والعسكرية.

وعندما يتجرّأ حسن نصرالله بكل وقاحة ليعلن ولاءه العابر للحدود؛ المرشد الأعلى في إيران، أو تقوم بعض قيادات تيار الإخوان المسلمين المنتشرين في الدول العربية بتقديم مصلحة "جماعتهم" وخليفتهم المنتظر على دولهم الوطنية، علينا حينها ألا نستغرب لحدوث انفجارات، لأن إيران وتركيا تريدان إبقاء الدول العربية في أزمات ومشاكل، حرصا على مصالحهما، التي تتحقق وتنمو في ظل الانقسام العربي وتمزق مجتمعاته.

**النتيجة التي نراها حاليا يجب ألا تشغلنا عن التوقف لنركز على الأسباب التي أدت إلى هذه الفاجعة الإنسانية، فالأمر ليس وليد اللحظة وإنما هو مرض تراكمت أسبابه الخطيرة فترة طويلة**

لو أخذنا ما حدث في لبنان وفق مبدأ، تحويل الأزمات إلى فرص، واعتبرناه حسنة، رغم كل الخسائر التي لحقت بلبنان، فإننا نستطيع القول إن الانفجار أعطى درساً لكل الشعوب العربية، وليس للبنانيين والعراقيين فقط، بأن ما حدث هو نتيجة طبيعية للسماح لدول أجنبية بالتدخل في الشأن الداخلي للدول العربية، وهي مسألة تعاني منها أغلب دول المنطقة.

أثبتت الأحداث أن نظام المحاصصة السياسية، الذي تعتمده بعض الدول العربية مثل العراق ولبنان، هو نظام خطير جداً، بيّنت التجربة في كلا الدولتين أن من نتائجه ولاءات خارج حدود الوطن. وبالتالي يجب الاستفادة من هذه الحادثة، في مراجعة أنماط من الحكم لم تجلب على الشعوب العربية سوى الكوارث، والعمل من أجل تحقيق الدولة الوطنية.

إيران وتركيا، تحديداً، دولتان في الجوار العربي تسعيان لتحقيق مصالحهما من خلال اختراق فئات مستعدة لبيع نفسها داخل المجتمعات العربية، وعادة ما تكون الانتماءات غير الوطنية المدخل المناسب لذلك.

# مناورات إيران السياسية يبددها «الرسول الأعظم»

عمر علي البدوي
صحافي سعودي

لا تزال إيران تحتل موقع الصدارة في شريط أخبار المنطقة، وهي وسط كل التحديات التي تعانيها، تبدو متخبطة، تتبنى موقفين متناقضين في لحظة واحدة.

قد يبدو الأمر من باب التشويش، وذرّ الرماد في العيون، لكنه من جهة أخرى يعدّ شاهداً على حجم الضغط الكبير الذي تواجهه، والنتائج الكارثية التي تصل إليها نتيجة سلوكها التخريبي على مدى ثلاثة عقود.

جدّدت دول مجلس التعاون الخليجي، بالتوافق، طلبها من الأمم المتّحدة تمديد فرض الحظر الدولي على تصدير الأسلحة إلى إيران، يحدث هذا على وقع المناورات البحرية الضخمة التي أجرتها إيران في منطقة الخليج ومضيق هرمز، ضمن تدريبات تسمّى "الرسول الأعظم"، قامت خلالها بإطلاق صواريخ باليستية في تصرّف وصفته القيادة المركزية الأميركية بـ"غير المسؤول".

وسواء نجحت الضغوط التي تجمع عليها دول الخليج مع واشنطن في تمديد مشروع حظر السلاح على إيران أو أخفقت، فإن البحث عن بدائل في حال لم تنجح الضغوط قائم، بدءا من واشنطن التي هددت باستخدام "كل الأدوات المتوفرة لديها" لقطع الطريق على إيران التي قد تبدأ في إنعاش وكلائها إذا لم يتم تمديد الحظر، وانتهاء بدول المنطقة التي تحرص على أمن شعوبها.

ولعل في إعلان وزير الخارجية الأميركي اختيار إليوت أبرامز، بديلا لبريان هوك، كمبعوث خاص لواشنطن بشأن إيران، يعكس موقف الإدارة المتشدد ضد إيران في الأشهر الأخيرة من ولاية ترامب الأولى، وسعيها لإجبار طهران على تغيير ما تصفه واشنطن بـ"السلوك الخبيث" لإيران في الشرق الأوسط.

**النظام الإيراني يتبنى عقيدة صلبة لا يمكن التعامل معها بمنطق الحوار وأعراف التفاهم السياسي ويثبت سلوكه في كل مرة عداء صريحا ونوايا مبيّتة تهدف للإضرار بأمن دول الخليج ودول المنطقة**

وسط هذه الأجواء الساخنة التي تخيّم على المنطقة، بعث الرئيس الإيراني الأسبق محمود أحمدي نجاد برسالة إلى ولي العهد السعودي الأمير محمد بن سلمان، عرض فيها وساطته لإنهاء الحرب في اليمن. ورأى المحللون في الرسالة مجرد اجتهاد شخصي للبحث عن دور جديد وفق حسابات داخلية، تفسّرها الخلافات باتت معروفة للجميع بينه وبين أقطاب منظومة الحكم الإيراني.

نجاد ليس محل ثقة لدى دول المنطقة، وهو الذي شهدت إيران خلال فترة حكمه توسعاً بشعاً في تنفيذ مشروعها والاستمرار في سياساتها العدوانية، وقد أغرته حالة الضعف التي نتجت عن ثورات الربيع العربي لقطع مراحل مهمة في مشروع طهران للتمدد في المنطقة.

كما أن النظام الإيراني يتبنى عقيدة صلبة لا يمكن التعامل معها بمنطق الحوار وأعراف التفاهم السياسي، ويثبت سلوكه في كل مرة العداء الصريح والنوايا المبيّتة للإضرار بأمن دول الخليج واستقرار محيط جيرانه.

كان آخرها ما أعلنته وزارة الداخلية البحرينية مؤخرا، عن إحباطها عمليتي تهريب مواد متفجرة من إيران، إلى جانب ضبطها لسيارتين محمّلتين بالمتفجرات.

وقالت الداخلية إن الأشخاص المعتقلين كشفوا خلال التحقيقات عن وقوف ميليشيا حزب الله الإرهابي وراء هذه العمليات.

هذه لحظة تاريخية تعيشها المنطقة، ينكشف خلالها الدور الإيراني السلبي، بعد وقوع الفاجعة في بيروت، والتي يتحمل وزرها الأكبر الوضع العام الذي تسببت فيه السيطرة الكاملة لحزب الله على المشهد في لبنان، وانضوائه تحت راية المرشد الإيراني.

لا يمكن إنقاذ المركب الغارق. المحاولات غير المفهومة التي يبديها الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون، لتخفيف وطأة العقوبات على طهران أو كبح جماح الاندفاع الأميركي لمعاقبتها، أو إعادة تأهيل سلطة حزب الله في لبنان بعد أن تهتكت في الأوساط الشعبية، يجب أن تواجه بتوافق عربي قوي لقطع الطريق عليها وحصر إيران في الزاوية الأضيق للتخلي عن مشروعها التخريبي، وتوسيع دائرة الضوء الدولية على نتائج سلوكها السلبي وغير المسؤول في المنطقة.